قراءة نقدية لكتابي الفيلسوف هربرت ماركيوز

الإنسان ليس حيواناً، ففيه بعد أخلاقي راقٍ كرّمه الله به واصطفاه لعمارة الأرض وخلافته في احسن صورة

حافظ لصفر

بكالوريوس في الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع

ماجستير في ادارة الموارد البشرية وماجستير في الادارة التربوية وماجستير في القيادة المجتمعية

باحث دكتوراه في الفلسفة

إيروس والحضارة

يستشهد الفيلسوف في بداية الكتاب، بقولة تؤسس لعلم النفس من لدن مؤسس الفلسفة الإغريقية سقراط: "أيها الإنسان اعرف نفسك تعرف العالم"، أوردها كحجة فلسفية، ليبين جهل الإنسان بقدراته الذاتية النابع من اغترابه داخل الحضارة المادية المزيفة التي حولته إلى مجرد شيء من أشياء الطبيعة ضمن منظومة كلية، فقَدَ معها فرديته كخصوصية، وعومل بوصفه جزءا من مجموع كلي، لا بوصفه ذاتا، فتنازل عنها لصالح ذات حضارية اجتماعية عامة وشاملة، تشيع اللذة الظاهرية، وتغفل عن جوهريته التي هي حرية شيوعية اللذة الجنسية، فالكفاح الحقيقي ينبغي أن يكون من أجل الحياة والحب، لأن التاريخ والحضارة نضال في العمق ضد كبت غرائزنا، وليس صراعا طبقيا، كما صورته "الرأسمالية الحديثة"، وهذا ما يمنعنا من الوصول إلى مجتمع غير قمعي بالاعتماد على تجربة مختلفة جوهريا للوجود وعلاقة مغايرة بين الإنسان والطبيعة، واستحضر كحجة فلسفية من مجال علم النفس الطرح التحليلي الفرويدي، بأن الحضارة تحتاج إلى الكبت لتستمر خاطئة، وأن إيروس أي الرغبة في التمتع بالحياة، وأهمها الجنس كمفهوم محرر وبناء، وهذا يتماثل مع كتاب فرويد "الحضارة وسخطها"، فهناك صراع مرير بين الأنا الأعلى كضمير للقمع من جهة، والغرائز البشرية من جهة ثانية، وهو ما سماه الأخير باللاشعور أو اللهو، فالحضارة الغربية تتأسس على قمع الغرائز، على أساس أن منطلقها هو تحريرها، فالجنس وسماه بالليبيدو

ينتج الطاقة، ويجعل الشخص يتخلص من الكبت المفروض عليها، حيث تتوجه الطاقة نحو التقدم، وثمن ذلك هو سيادة الذنب، بدل السعادة المغيبة، فالصراع العصي في العمق، ليس بين العمل كمبدأ للحقيقة "الحياة بدون رفاه" وايروس "مبدأ المتعة"، ولكن بين الاغتراب الوظيفي (مبدأ الإنجاز "التقسيم الطبقي الاقتصادي")وإيروس، فالجنس مسموح للأشخاص الرأسماليين وذوي النفوذ، ويسمح به للعامل إذا لم يؤثر على إنجازه للعمل، أي عدم كبت الدافع الجنسي بنفس القوة (شيوعية اللذة)، وهذا النقد الموجه للحضارة الغربية، لكونها توهم الإنسان بالحرية، والأخيرة لا تتحقق من منظوره إلا بثورة الطبقة العمالية التي اعتبرها بدورها انغمست في وهم هاته الحضارة، وهذا يعني أن ماركيوز تصور الخلاص في الإباحية والمتعة اللا محدودة.

كتاب الإنسان ذو البعد الواحد

يتحدث ماركيوز عن الاغتراب للنوع الإنساني كمالك للعقل، لأن الدولة بالمجتمعات الأوروبية ومؤسساتها، هي من تفكر وتخطط، فترسم عقلانية بعيدة عن منطق الإنسان وميولاته وغرائزه، هدفها الوصول إلى مجتمع يلغي الفردية، ومعها تتراجع الحقوق والحريات عن سلم الأولويات، كلما تقدم المجتمع الصناعي أفرغها من مضمونها الإنساني، وهذا مناقض لتبشيراته وشعاراته التي رفعها في بداية عصره، حيث تتحايل المجتمعات الصناعية على نوازع الإنسان الفردية بحجة تطبيق القانون، وتمنحه رفاها زائفا، فعقلانية هذه المجتمعات في لُبِّها غير عقلانية، لأنها أقصت الذات الإنسانية الحرة عن حيز الوعي، وجعلت طاقاته الغريزية، واستعداداتها النفسية والعقلية وملكاته الفكرية موجهة أو مستعدة لتقبل الواقع الراهن، حيث انتصر مبدأ الواقع على مبدأ اللذة، وتحول معه ما كان لدى الأفراد من لذة وسعادة وأمان إلى مصدر قلق وخوف وتبعية داخل نفسية الفرد وفي أعماقه، فمن خلال المجتمع الصناعي وشيوع العقل الأداتي انتقد ماركيوز النزعة الاستهلاكية بقوة كشكل من أشكال السيطرة الاجتماعية، وسلب الحرية الحقيقية للإنسان، وتحرره متجل في ممارسة المتعة الجنسية كما يحلو.

الانتقادات الموجهة للطرح الماركيوزي

– دوكلاس كيلنر في كتابه "ماركيوز وأزمة الماركسية"، اعتبر كتابه الإنسان ذو البعد الواحد من أكثر الكتب التخريبية للأنظمة السياسية في القرن العشرين، واعتبره من المؤثرين فقط في اليسار الجديد، وهو كتاب تشاؤمي.

– ستيفن هيكس، اعتبره من الكتب التي تميل إلى اللا عقلانية والعنف بين اليساريين الأصغر سنا (الجدد).

– اعتباره أن التحرر كامن في البعد اللذي – الغريزي، طرح قاصر، لأن الإنسان ليس حيوانا، ففيه بعد أخلاقي راقٍ كرّمه الله به واصطفاه لعمارة الأرض وخلافته في أحسن صورة، وبه يرقى عن الحيوان الشهواني الذي لا يتجاوز أفق إشباع ملذاته وغرائزه البيولوجية والبهيمية..